فؤاد الأول

بقلم الأستاذ عبد العزيز البشرى

من محاضرة أذاعها فى يوم ٢٦ مارس سنة ١٩٣٣ من محطة راديو الأمير فاروق ، بمناسبة عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم .

فى هذا اليوم الأغر تحتفل البلاد بذكرى ميلاد مولانا المعظم ، الملك فؤاد الأول، أدامه الله . وإن ذكرى ميلاد مولانا المليك ، لحقيقة من كل وطنى ووطنية بالاحتفال ؛ لا بالاقتصار على تزيين الدور ، وإعلان مظاهر السرور ، وبعث أسباب الجزل فى الأهل والولد فحسب ، بل بالاحتفال أيضاً فى أعماق الضمائر وأطواء القلوب .

وبهذا نؤدى لله تعالى حق الشكر على ما أولانا من جلائل النعم . وبهذا نضرب للأمم جميعاً أعلى مثل الوطنية الفخمة ، التى تلهمنا كلنا نحن المصريين — على اختلاف منازعنا ، وتفرق أهوائنا — تلهم قلوبنا أخلص الولاء وأصدق الحب لقائدنا الأعظم ، رمز آمالنا جميعاً ، وملتقى أمانينا جميعاً .

***

إن من الغرور وشدة الذهاب بالنفس ، أن أزعم أو يزعم غيرى أنه مستطيع فى كلمات أو فى خطبة ، مهما أسبغها وأضفاها ، أن يلم بمناقب صاحب الجلالة وآثاره الضخام ، فى نهضاتنا الضخام ، فذلك ما ينبغى أن تحتفل به الكتب ، ويرتصد لنظمه التاريخ الطويل ؛ على أن المقام مقام اغتباط وسرور ومراح ، ومثل هذا المقام ، لا يحسن فيه إطالة الكلام .

ويحسبى أن أذكر حضراتكم بأن عرش مصر شغر فى أعقاب سنة ١٩٠٧ ، والسيوف ما زالت تقطر بالدماء ، والمنايا تطلع على الناس من جوف الماء ، وتسقط عليهم من جو السماء ، ولهيقات الحرب إرعاد وإبراق ، وبلاء يحيق بالعالم من جميع الآفاق ، والمدافع عزيف يصم الآذان ، وهزيم يؤذن فى الأرض بألا سلام اليوم ولا أمان ، والسفينة هنا فى معترك اللج حيرى موطة ، تنظر إلى هذا العالم بعينى فتاة مذعورة ، تصلصل بها الريح فتلوذ بكنف الموجة ، وسرعان ما تنفضها هذه عن كنفها فتكاد تهوى إلى القرار السحيق ، وما تبرح فى ترجحها المخيف ، بين نوازى اللج العنيف ، والريح من حولها بين جذب وشد ، والماء من تحتها بين

جزر ومد ، إذ قلبها فى الصعود والهبوط : هواء من الرجاء ملىء باليأس والقنوط !

***

وهنا تستشرف إلى الأمير أحمد فؤاد أرواح محمد علىّ وإبراهيم وإسماعيل ، وتهيب به أن قم إلى السفينة فقدها إلى شاطىء السلام ، فليس لها اليوم سواك . ويأبى على الأمير حفاظه لمجد آبائه العظام ، وحرصه على ماخلفوا فى هـذه البلاد من آثار جسام ، إلا أن يثب إلى السفينة غير خائف ولا متخاذل ، ويقودها وسط هذه الزعازع قيادة الربان القوى العظيم . ويظل ، وبين يديه ملاحوه الشجعان الأكفاء ، يدافع الأنواء ، والأنواء تدافعه ، ويصارع الأمواج ، والأمواج تصارعه ، حتى تكل منا كب البحر فيستحيل فى لينه غديراً ، وتنخذل سواعد الريح فتصبح فى لطفها نسيما ، وقد كانت صرصرا وكانت دبورا . فما يزال بالسفينة وبسم الله مجريها ، حتى يستوى بها على شاطىء الأمن والسلام .

وما يكاد ينبثق فجر سنة ١٩٢٢ حتى تعلن انجلترا الظافرة المنتصرة فى الحرب العالمية انتهاء حمايتها على مصر ، والتخلية بينها وبين حكم نفسها . وحتى يعلن جلالة الملك فؤاد الأول فى العالم كله ، أن مصر أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة . وإذا كانت هناك مسائل ما برحت معلقة بين مصر وبين انجلترا ، فالآمال معقودة ، بعد الله ، بحكمة مولانا المليك ، وبعد همته ، وصدق عزمته ، فى تحقيق ما تصبو إليه البلاد من السيادة الكاملة والاستقلال التام .

***

أما فيما يتصل بفنون الإصلاح الداخلية ، فبحسب المرء أن يجيل طرفه فى أرجاء البلاد ليرى أنى وقع النظر ، موضع نهضة ، ومكان إصلاح : هذه نهضة قوية فى العلم ، وهذه أخرى فى الأدب ، وثالثة فى الفنون ، وسواها لا تقصر عنها فى الزراعة وفى الصناعة وفى التجارة وفى سائر أسباب الحياة ، أنى جال طرفك فلن يرتد إليك إلا بومضات متدارکة متلاحقة ، ونهضات متبارية متسابقة ، ذلك بأن الملك فؤاداً يأبى عزمه إلا أن يتم ما أسسه جده محمد على وما شيده أبوه إسماعيل ، حتى تصبح مصر جديرة بتاريخها القديم ومطمحها الحديث .

** *

ليس من العدل ولا من الصدق أن يضيف التاريخ كل هذا الفضل إلى عصر الملك فؤاد فحسب ، بل إن الصدق والعدل ليقضيان بأن يضاف هذا إلى شخصه العظيم أيضاً . فهو ـ أدامه الله ـ لم يتخذ الصولجان حلية ولهواً وزينة ، بل لقد اتخذه كما يلبس الكمى فى يوم الروع سلاحه ، فهو ما يزال جاهداً فى التفكير فى الدقيق والجليل من أسباب الحياة فى هذه البلاد ، وكلما

استوى لفكره الخصب القوى رأى في منفعة البلاد، أشار به، ودفع إليه، وأذكى الهمم للنهوض به. وما يبرح يتفقده بشخصه، ويتعهده بحكمته حتى ينضج ويؤتى أشهى الثمار من أكله. فما من فضل في هذا الخير العظيم إلا له أوائله وأواخره، وإليه موارده وعنه مصادره.

ولست هنا بصدد تسجيل آثار المليك، فهي ماثلة للأعيان، قائمة في كل مكان، ثابتة على وجه الزمان.

***

ليس يذهب عنكم أن هنا لكم عناصر كثيرة تظاهرت كلها على تشويه سمعة مصر في الخارج: حتى تمثلت لنا ولبلادنا عند كثير من الأمم أقبح الصور، وحتى أضافوا إلينا من الخلق ومن الأخلاق والعادات مايضحك ومايبكي.

وهاهو ذا جلالة مولانا المليك المعظم يشد الرحال، الحين بعد الحين، إلى بلاد الغرب ومعه صدر من بطانته وظهارته، فيرى القوم أي رجل هو المصري، وأي ملك هو فؤاد الأول.

يرى ملوك الغرب وأمراؤه وساسته وعلماؤه ملكا قد اجتمع له إلى شدة العقل ووثاقة الحلم: ذكاء الجنان وحدة الرأي وسعة العلم. يشهد آثار القوم ومصانعهم ومعاهدهم ومعاقد تاريخهم: فيتحدث عن كل مايشهد حديث العالم، المحيط بالدقيق وبالجليل.

لامعنى بكل شيء ولا كل عجيب في عينه بعجيب

يرون ملكا جمع إلى أعلى الثقافات العالمية جلال الشرق ووقار الاسلام.

وإنه ليستزير الملوك والأمراء، ويغشى بلاده أقطاب العلماء وكبار الرجالات من آفاق الأرض فيشهدون فيها آثار العظمة والمجد، ويطالعون في جميع مرافق الحياة نهضة أمة يأبى عليها تاريخها وتأبى عليها عزتها إلا أن تحتل مكانها اللائق بها تحت الشمس.

وهذه بعض آثار شبل إسماعيل وحفيد محمد علي العظيم.

***

وأختم هذه الكلمة بالابتهال إلى الله جل مجده أن يحفظ لمصر مناط أملها وذخرها، ومثابة عزها وفخرها، وحارس ثغرها، وجماع أمرها، مولانا المليك المعظم فؤاد الأول حفظه الله، وحرس بعنايته سمو مولانا الأمير فاروق، وأبقاه قرة عين له ولشعبه. وإني لأختم في الدعاء لجلالة مولانا بقول الشاعر:

بقيت بقاء الدهر يا كهف (شعبه) وهـذا دعاء للبرية شامل

لتحيى مصر، يعيش جلالة الملك، يحيا سمو الأمير فاروق.

عبد العزيز البشري